فهم «أذلُّ من قَفْع بقرقرة»، لا أصول لهم ولا أغصان.

وهم «كُشُوث الشجر»، والكشوث: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. كما قال الشاعر:

هُمُ الكُشُوثُ فلا أصلٌ ولا وَرَقٌ ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثَمَرُ

. . وهذا خبر حقيقيّ، ليس للخيال فيه نصيب، نصَّ عليه التاريخ، وصدقه العقل والنقل. . وأشرح هذا الخبر في النقاط التالية:

1 ـ إنَّ المصدر الوحيد الذي اعتمد عليه المؤرخون في صلة اليهود ببلاد الشام بعامة وفلسطين بخاصة، هو ما يسمى: كتاب «التوراة» عند اليهود، أو ما يسمى: «العهد القديم» عند النصارى.

يستوي في ذلك المؤرخون العرب، منذ بدأ التدوين التاريخي حتى اليوم، والمؤرخون الأوربيون والأمريكان. . ولكلا الطرفين هدف من الرجوع إلى «التوراة» ووصل أخبارها بفلسطين والشام.

أما المؤلفون العرب؛ فكان هدفهم الحشو، وتسويد الأوراق، وإظهار المعرفة بأخبار أهل الكتاب، وإشباع نهم العامّة بإيراد القصص الغريب، والإجابة عن أسئلة العامّة: مَنْ هو؟ وأين كان الحدث؟ وما اسم البطل؟ وخصوصاً عندما يقرؤون القصص القرآني الذي اهتم بالفكرة والحكمة دون تحديد زمان أو مكان، بل يذكر القرآن أحياناً القصة دون نسبتها إلى إنسان. .

فجاء المؤرخون العرب، ومفسرو القرآن ـ وهم في هذا الجانب يضافون إلى المؤرخين ـ فذكروا ما سكت عنه القرآن، اعتماداً على كتاب «يهود» المسمى «التوراة» مع أن القرآن قال لهم: إن كتاب يهود موضوع، مصنوع، ولا يتصل بسبب بما أُنزل على موسى.

وأما المؤرخون الأوربيون والأمريكان، فهم مدفوعون بهدف ديني عقدي يريدون منه إثبات صحة ما جاء في كتاب يهود، وخصوصاً أن الدراسات التي تبحث في تاريخ فلسطين القديم، لا تخرج إلا قليلاً عن مجال الدراسات الدينيّة التي تختص بها الكليات التي توصف بـ «اللاهوتية». . فإذا كان الباحث يهودياً، فهو يتعبد بكتابه «التوراة»، وإذا كان الباحث نصرانياً فهو مؤمن بـ «التوراة»؛ لأنه يعدّها من الكتاب «المقدس»، وهي العهد القديم عنده، من الكتاب المقدس يقابله «الإنجيل»، وهو «العهد الجديد». وهؤلاء وأولئك، يعدون النصّ التوراتي مصدراً تاريخياً لا يخطئ. . نستثني قلة قليلة بدأت تتفلت من ربقة الخرافة التوراتية. كما استطاع بعض المؤلفين العرب ـ في العقود الأخيرة من القرن العشرين ـ أن يتحرروا من العبودية للمصادر الأوروبية في كتابة تاريخ فلسطين والشام ـ ومن هؤلاء المؤلفين العرب فراس السواح (ولد سنة 1941م في حمص) صاحب كتاب «آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ، والتاريخ[1] التوراتي».

2 ـ وأُوجز هنا ما كتبه فراس السواح في خاتمة الكتاب تحت عنوان: «أُفق الخرافة، وبداية التاريخ اليهودي». . وقسّم الخاتمة إلى قسمين:

الأول: خلاصة النتائج التي توصل إليها عند دراسة النصوص التوراتية التي تزعم قيام دولة اسمها إسرائيل في حقب ما قبل التاريخ، وقد توصل إلى نتيجة تفيد بأن الدولة اليهودية المزعومة خرافة لا وجود لها على أرض الواقع.

والقسم الثاني: يشرح فيه بالأدلة: أن الوجود اليهودي بدأ في العهد الفارسي، وأن هذا الكيان خلقه الفرسُ لهدف سياسي، وأن هذا الكيان ليس له علاقة بتاريخ بني إسرائيل، أو بآل إبراهيم. وكان الادعاء المزعوم من أجل إثبات نسب قديم شريف. . وإثبات عودة إلى أرض جذور، لا يجتمعون معها في زمرة الدماء.

يقول تحت عنوان: «خلاصة ما تقدَّم»: لقد تتبعنا في القسم الأول من هذه الدراسة «إسرائيل التوراتية» كما رسمتها الأسفار المسماة بالأسفار التاريخيّة في كتاب

---

(1) قوله: «في التاريخ»؛ أي: التاريخ الحقيقي. وقوله: «والتاريخ التوراتي» يريد من وجهة نظر كاتب التوراة. وشتان ما بين التاريخ الحقيقي والتاريخ الموضوع من نسج الخيال!.

«التوراة»، وبذلنا كلَّ جهد ممكن من أجل التحقق من الوجود التاريخي لكل مرحلة من مراحل تشكلها وتطورها. . فلم نعثر على بينة واحدة تؤكد ذلك الوجود، وعلى العكس، فإن الشواهد الجديدة التي تجمعت لدينا تنفي نفياً قاطعاً أية إمكانية لظهور كيان سياسي أو إثني (عرقي) من أيّ نوع اسمه «إسرائيل» قبل أواسط القرن التاسع قبل الميلاد. وذلك عقب بناء مدينة السامرة التي صارت عاصمة لمنطقة الهضاب المركزية في فلسطين، فهنا يظهر لأول مرة كيان سياسي اسمه «إسرائيل». . والتي جاء مستوطنوها من مصادر متنوعة، لا منْ مصدرٍ واحد. . ومرة أخرى، فإن «إسرائيل» السامرة هذه لا يربطها بصورة إسرائيل السامرة في التوراة إلا أوهى الروابط، وكذلك «يهوذا» التي نشأت بعدها بقرنين من الزمان، فالدولتان قد نشأتا تباعاً في فلسطين بعد القرن العاشر قبل الميلاد، ولم تسبقهما مملكة واحدة كانت أصلاً لهما، ولا وجود لأرضية مشتركة جمعت بينهما، وكما نشأت هاتان الدولتان تباعاً، فقد دمرتا تباعاً، واختلفت مصائرهما التاريخية أيما اختلاف.

وقال فراس السواح: إن البحث عن التاريخ في النصّ التوراتي، هو عمل أشبه بالبحث عن السمسم في كيس من البندق؛ لأن النصَّ التوراتي ليس نصاً تاريخياً بأيّ معيار حديث أو قديم.

. . إنه قصة أُصول يغيب فيها الحدث المدقق المحقق لصالح العقدة القصصية.

. . إن الأسفار المدعوة بالتاريخية، هي سلسلة من المرويات الشعبية المختلفة، جُمعت بعضها إلى بعض في نسيج واهي الحبكة، وترتيب زمني مفروض عليها من خارجها.

أما الزمرة الثانية الرئيسية من أسفار التوراة، وهي ـ أسفار الأنبياء ـ، فليست إلا مجموعات من أقوال ومأثورات حكمية قديمة تختصر ألف عام من التقاليد النبوئية في فلسطين والمناطق المجاورة لها، وموضوع هذه التقاليد هو إدانة السلوك العام للناس، ونقد الحكومات، والكشف عن الانحرافات والمظالم. . وقام «المحررون التوراتيون» بجمع هذه المادة القديمة، فرتبوها وصنفوها ووضعوها على لسان شخصيات نبوية، قد يكون بعضها من أصل تاريخي. .

إنَّ همَّ المحرر التوراتي[1] ليس همّاً تاريخيّاً، بل همٌّ تراثي، إنه يعمل على جمْع وتصنيف وإعادة صياغة تركة ثقافية شعبية متعددة النشأة والأصول وخطوط التداول ليصنع منها قصة أُصول.

وضمن هذا الجنس الكتابي، فإن المحرر يلجأ إلى استبعاد ما حصل فعلاً ـ هذا إذا توفرت لديه المادة الموثقة ـ لصالح رغبته في تصديق سلسلة ما من الأحداث، أو جعل قارئه في حالة تصديق لها.

وليس الناتج الأخير لهذه العملية إلا جنساً كتابياً هجيناً، لا يربطه بجنس الكتابة التاريخيّة إلا أوهى الروابط.

وقال: لقد استطعنا من خلال النقد النصّي والتاريخي والأركيولوجي للأسفار التاريخية أن نُظهر بالتفصيل أن محرري التوراة في الأزمنة المتأخرة إبان العصر الفارسي، لم يكن بين أيديهم معلومات تتعلق بتلك (الفترات) الموغلة في القدم التي يروون أحداثها، سواء أكانت هذه المعلومات متناقلة شفاهة أو كتابة..

وغالباً ما وردت أسماء شعوب في سياق زمني يتضمن مفارقة تاريخية واضحة.. فممالك شرقي الأردن التي قهرها موسى في آخر ملحمة الخروج، لم تكن موجودة في ذلك الوقت، كما بينه المسح الأثري للمنطقة. ومنطقة الساحل الفلسطيني الجنوبي التي يدعوها سفْر الخروج بأرض الفلسطينيين، لم تكن قد استقبلت زمن الخروج أية موجة من موجات شعوب البحر من فلستينيين[2] وغيرهم..

---

(1) أخبر الله تعالى في القرآن: أن اليهود حرّفوا توراة موسى، وكتبوا كتاباً من عند أنفسهم، وسموه التوراة، وادعوا أنه من عند الله، فقال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79].

(2) هذا، إذا ثبت أن قوماً يسمون: «الفلستينيين» هاجروا من جزيرة كريت إلى «فلسطين»؛ فقصة الفلسطينيين، من اختراع كتبة التوراة.

.. والحق أنهم موجة عربية تحركت داخل الجزيرة العربية؛ بدليل أنهم لم يتركوا لغة أو أثراً يدلّ على غربتهم عن البيئة، فقالوا: إنهم ذابوا في القبائل الكنعانية العربية التي سبقتهم، وأخذوا لغتهم وديانتهم. وهذا الامتزاج السريع لا يكون إلا بين شعبين لهما أصل واحد وتراث متقارب.

وتقدم نتائج علم الآثار صورة أكثر تخييباً للآمال في العثور على «إسرائيل» التوراتية؛ فجميع المواقع الفلسطينية في منطقتي الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا، وخارجها، تظهر استمراريّة ثقافية محلية كنعانية فيما بين عصر البرونز الأخير وعصر الحديد الثاني، ولا يوجد أيّ دليل أثري على حلول أقوام جديدة في هذه المنطقة، جلبت إليها تقاليد ثقافية مغايرة. وقد سقطت اليوم إلى غير رجعة نظرية الاقتحام العسكري لأرض كنعان من قبل القبائل الإسرائيلية الموحدة تحت قيادة «يوشع بن نون» وتدمير مدنها الرئيسة؛ لأن نتائج التنقيب الأثري في هذه المواقع تنفي الرواية التوراتية نفياً تاماً.

أما عن «المملكة الموحدة» فإن المسح الأركيولوجي للمناطق الهضبية التي كانت نواة هذه المملكة ـ كما تزعم التوراة ـ ينفي وجود قاعدة سكانية واقتصادية في هذه المناطق خلال القرن العاشر تسمح بقيام مثل هذه المملكة؛ فمملكة داود وسليمان ليست مستبعدة تاريخياً فقط، بل إنها مستحيلة الوجود، ناهيك عن نتائج التنقيب الأثري في موقع «أورشليم» ذاتها، الذي أظهر أن مدينة أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد، لم تكن إلا بلدة صغيرة جداً، ومن غير الممكن أن تكون هذه البلدة قد استطاعت بناء هيكل ديني يربو على مساحتها، وبناء قصور ملكية لسليمان وزوجاته. وصروح مدنية وإدارية ضخمة، وذلك إضافة إلى عدم العثور على أي شاهد أثري على أنّ هذه الأبنية قد قامت في يوم من الأيام.

وفي آخر القسم الأول من هذه الخاتمة، يطرح السؤال التالي:

إذا لم تكن «إسرائيل التوراتية» قد وُجدت قطّ، وإذا لم تكن دولتا السامرة ويهوذا قد نشأتا عن المملكة الموحدة لداود وسليمان، ولم يكن لهما قاعدة مشتركة جمعتهما على أيّ صعيد، وإذا لم يكن للدين التوراتي أي أثر في فلسطين قبل العصر الفارسي، وإذا لم يكن ليهود ما بعد السبي ـ المزعوم ـ علاقةٌ مباشرةٌ بأرضِ إسرائيل ويهوذا ما قبل السبي، فلماذا، وكيف تمّ خلقُ هذه الخرافة الكبرى؟ نقصد خرافة الوجود اليهودي في فلسطين، وخرافة السبي، وخرافة العودة القديمة التي نشأت عنها خرافةُ العودة الأخيرة في عهد الاستعمار الإنكليزي الملعون المذؤوم.

2 - اليهوديّة، والنظام العالمي الجديد، للإمبراطورية الفارسيّة:

تحت هذا العنوان كتب فراس السواح ما يمكن اختصاره في أن «اليهودية» نشأت في ظل الحكم الفارسي لبلاد الشام، وبترتيب منهجي من الفرس لغرض سوف نشرحه فيما بعد.

وهؤلاء الذين أُعطوا اسم «اليهود» مجموعة من الناس، جمعتهم الإدارة الفارسية من عروق شتى، ومن أماكن شتى، لا يجمعهم جامع، وأوحت إلى رجل اسمه «عزرا» أن يكتب لهم «شريعة» يعلمهم إياها، ويسيرون على هُداها، فبدأ بكتابة ما سمّيَ فيما بعد: «التوراة». ونسبها إلى موسى، وتدرج في العودة إلى التاريخ القديم، فنسب هؤلاء القوم إلى يعقوب، ومن قبل يعقوب إلى إبراهيم، فكانت قصة نسب ملفقة، وشريعة ملفقة. لمجموعة من البشر لا صلة لهم ببلاد الشام، زرعهم الفرس في فلسطين؛ ليكونوا أعواناً للفرس في تحقيق مآربهم الاقتصادية والسياسيّة. ولهذه القصة بداية وهدف ومنهاج مرسوم سوف نشرحه فيما يلي موجزاً.

أ ـ من هنا كانت بداية الحكاية: حيث بدأت هذه السياسة منذ العهد الآشوري، عندما كانوا يقومون بعملية تجميع وتهجير فئات من الناس إلى منطقة معينة، ويبسطون عليهم حماية الدولة لكي يغدو هؤلاء ممثلين للسلطة في تلك المناطق، فيعملون على معارضة أو قمع النزعات التحررية التي يمكن أن تنشأ بين السكان ضد الحاكم، وقد قام المهجَّرون بهذا الدور المرسوم لهم؛ حيث شكلوا جيوباً اجتماعية تعمل على تهدئة القلاقل، وتخفف من حدة المعارضة[1].

وقد تابع حكام الإمبراطورية البابلية الجديدة، وحكام الإمبراطورية الفارسية هذه السياسة على نطاق واسع، وحاولوا من خلال التحكم بتحركات الشعوب خلق شرائح اجتماعية مدعومة ومدربة من قِبَل السلطة، موالية لها.

---

(1) ولإيضاح هذه السياسة نقول: هذه سياسة قديمة، وما زالت باقية، بأساليب متعددة. ونضرب المثل بسياسة الاستعمار الأوروبي: بدأ أولاً بتهجير جنوده إلى بلد ما لاستغلال خيراته، ثم حلّ محلهم أعوان مدربون من أهل البلد تنفذ سياستهم. وفي كلّ بلد اليوم ـ من العالم الثاني والثالث والرابع ـ أُناس يعارضون سياسة التحرر الوطني.

وسار الإعلام الفارسي على سياسة ظاهرها الرحمة، وفي باطنها استخدام العصابات المدربة للسيطرة على البلاد. فهم - كما زعموا - محررو الشعوب من نير الاستعباد، ومخلصوهم من الحاكم البربري السابق الذي داس على كرامتهم، وشتتهم وسبى آلهتهم.. ولكنهم - في حقيقة نيّاتهم - يريدون حكم الشعوب واستغلال خيرات أرضهم بأقل التكاليف.

فمنذ دخل الملك قورش (557 - 528ق.م) بابل، ادّعى أن الإله «مردوخ» الذي هجر بابل مع بقية الآلهة، قد دعاه لينقذ الشعب، ويعيد الأمور إلى نصابها، وهو من «بابل» يعلن عن سياسته في إعادة بناء المدن المقدسة وهياكلها، وإعادة المهجّرين مع آلهتهم إلى تلك المدن التي جعلها البابليون خراباً.

وسارت عملية إعادة الشعوب والآلهة إلى مواطنها على قدم وساق خلال مدة حكم قورش وخلفائه، وذلك تحت شعارات: «التجديد» وإعادة البناء.. والهدف الحقيقي من هذا المشروع، خلق نظام إداري للإمبراطورية ذي طابع لا مركزي من حيث الشكل يساعد على حكم المناطق الشاسعة للإمبراطورية بكفاءة عالية وبنفقات أقلّ، كما يساعد على فرض القوانين والشرائع الفارسية، بعد إعطائها طابعاً إقليمياً محلياً.

وفي سعي الإدارة الفارسية إلى خلق هذه الكيانات الإقليمية التابعة التي تستقبل راضية القوانين والشرائع الفارسية التي توحدهما مع جسد الإمبراطورية الفارسية، فقد عملت هذه الإدارة على مطابقة الآلهة المحلية في المجتمعات الجديدة التي تمَّ خلقها، مع «إله السماء» الفارسي «أهورامزا» الإله الواحد الذي بشّر به زرادشت..

• في هذا السياق التاريخي والمناخ الفكري نستطيع أن نفهم الأخبار التوراتية حول إعادة بناء الهيكل في أورشليم، وإحياء المجتمع القديم في المنطقة.

إنَّ «العائدين» إلى أورشليم منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد، لم يكونوا استمراراً لأولئك المهجرين على يد نبوخذ نصر - كما يزعمون -، وما بنوه في أورشليم من هيكل ومدينة، لم يكن استمراراً للبنية القديمة، بل هو بنية جديدة

تخص مجتمعاً جديداً تمَّ تصميمه وفق التصورات العامة السياسية والدينية للنظام العالمي الفارسي.

• ويعترف اليهود أن الهيكل الذي ابتدأ بناؤه في عهد الفرس، ليس تجديداً لهيكل قديم، وإنما هو بناء جديد، وقد وضع خطته الملك الفارسي قورش، ونفذ البناء الملك داريوس الفارسي، وقد بُني هذا الهيكل لإله داريوس الفارسي في السنة الأولى لكورش ملك فارس.. نبه الربُّ روح كورش ملك الفرس، فأطلق نداءً في كل مملكته.. هكذا قال قورش ملك فارس: جميع ممالك الأرض دفعها لي الربّ (إله السماء)، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا [عزرا/ 1].

وفي السنوات الأولى لحكم الملك داريوس (522 ـ 486ق.م) تنطلق موجة من الأتباع والأعوان، وقد زودهم داريوس بمخطط لهيكل أورشليم، أُعد في عهد الملك قورش، وأعطى أوامره إلى عامله على مناطق غربيّ الفرات ليقدم لزربابل نفقة بناء الهيكل من خراج تلك المناطق.. يقول النص: «إن الإله الذي يُقام له هذا الهيكل هو إله داريوس بالدرجة الأولى، قبل أن يكون إلهاً للآخرين»..

• منذ أيام الملك داريوس، بدأت الإدارة الفارسية بخطة تهدف إلى مركزة وتنميط البُنى القانونية والاقتصادية للإمبراطورية، واعتمدت في ذلك على فرض ما يسمى بـ «شريعة الملك»، وهي الشريعة التي تلقاها من إله السماء «أهورامزدا»، وقد تمَّ فرض هذه الشريعة في صيغ محلية تجعلها تبدو وكأنها إحياء للممارسات والتقاليد والأعراف المحلية في البلدان المختلفة، وخصوصاً في تلك المجتمعات الجديدة التي تمّ إحياؤها، بعد أن خرّب الآشوريون بُناها.. وهذه الشريعة هي التي أُعطيت لعزرا من قبل الملك الفارسي ليعمل على تطبيقها.. فقد جاء عزرا إلى أورشليم، بوصفه متفقهاً في «شريعة الربّ» و«شريعة الملك» التي أرسلها الملك الفارسي بيد عزرا من أجل تنظيم شؤون المجتمع الجديد.

لقد جاء عزرا بسفر الشريعة، ومصدره البلاط الفارسي، ثم قرأ فقراته على مسامع الشعب الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً، في احتفال عظيم، وأخذ عليهم عهداً وميثاقاً بقبوله..

. . أخذ عزرا يشرح الشريعة للحاضرين، وللكهنة أيضاً؛ ليشرحوها للآخرين. . هكذا تقول المصادر اليهوديّة. . [نحميا/ 8/ 1 ـ 13] و[9/ 38، و10/ 1 ـ 29].

• وهذا يعني أن عزرا جاء بشريعة جديدة كلّ الجدة على المجتمع الجديد القادم من بلاد فارس. . فالشعب يستمع إلى فقرات هذا القانون أول مرة، ولهذا كان على عزرا أن يشرح فقراته للكهنة ورؤساء الشعب. . وهذا الشرح وإعادة الشرح، لا يمكن أن يكون موضوعه شريعة موجودة بين يدي الشعب تنظم أحواله الدينية والدنيوية، وترقى إلى أيام موسى[1]، وليست تسمية هذه الشريعة بشريعة موسى، إلا لمسة تحريريّة وضعها محررو التوراة، عندما ألحقوا أخبار المدة الفارسية بالقصة التوراتية الطويلة.

وفي الحقيقة، فإن الميثاق الذي أخذته الجالية الجديدة في أورشليم على نفسها بقبول الشريعة ـ شريعة الله وشريعة الملك، وهو «العهد الأول» الذي يتمّ بين إله السماء الجديد في هيكل أورشليم وبين شعبه الجديد. وهو الذي أسقطه المحررون على قصة الأصول، فعقدوه منذ البداية بين إبراهيم وإله إبراهيم، وجدّدوه مع بقية الآباء[2].

---

(1) يزعم اليهود أن بختنصّر سبى اليهود، وساقهم إلى بابل، وأن العائدين هم من اليهود المسبيين، فكيف يمكن أن يكونوا من اليهود المسبيين وهم لا يعرفون شيئاً من شريعتهم، يستوي في ذلك العامّة، والكهنة. .

قلتُ: إذا صح أن بختنصر سبى أحداً من فلسطين أثناء غزوته، فإنه سبى المهرة من الناس، وليسوا من اليهود. وأن قصة العودة مخترعة من البلاط الفارسي وأعوانه، وأن العائدين، بل المهجّرين من بابل إلى فلسطين، أشتات من الناس قبلوا أن يكونوا عيوناً وأعواناً للسلطان الفارسي مقابل مكاسب مادية يحصلون عليها.

(2) المفهوم من القصة الموضوعة أنه لم يكن هناك عهد أو وعد قبل العهد الفارسي، فالعهد الأول كان أيام قورش الفارسي وخلفائه، وكانت القصة المخترعة تقضي بأن يكون هؤلاء المهجرون (العائدون) متصلي السبب بتاريخ أقدم له صلة بتاريخ المنطقة، فربطوا العهد الفارسي بتاريخ المنطقة القديم، أو بما يُحكى من تاريخ المنطقة؛ ليجعلوا لهؤلاء المبعدين الجدد بُعداً تاريخيّاً، والله يعلم ما دبروا وادعوا، فردّهم مذؤومين، وفضح كذبتهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾، وكيف يكون =

ومما يدلُّ على أن هؤلاء المبعدين لا يربطهم بتاريخ المنطقة رابط، وليس لهم صلة بإبراهيم وموسى وداود: أن هذه الجالية الجديدة كان فيها مَنْ لا يرضى عن هذه الشريعة، ولذلك لم يكن أمامهم إلا أحد خيارين، فإما قبول شريعة الملك، أو مواجهة أقسى العقوبات، وهذا ما تنصّ عليه آخر فقرات أمر الملك الفارسي التي تنص على أنَّ كلَّ مَنْ لا يعمل بشريعة إلهك وشريعة الملك، فليقضَ عليه عاجلاً بالموت، أو بالنفي، أو بغرامة المال والحبس. وهذا يعني أننا أمام نوع من «عقد الإذعان» المفروض من قبل السلطة الفارسية، وأن مجتمع أورشليم لم يكن أمامه سوى خيار واحد، وهو القبول بلائحة القوانين الجديدة التي تنظم أحواله الدينيّة والاجتماعية والسياسية، وفْق الخطة الموضوعة لهذه المنطقة من الإمبراطورية الفارسية.

• وهذه النواة الأولى للشريعة التي وُضعت في البلاط الفارسي، والتي صلحت في البداية لخلق الاستقرار في مجتمع أورشليم، لم تبق على حالها. والكاهن عزْرا - الذي يمكن أن يُدعى أبا اليهودية[1]، قد عمد فيما بَعْدُ إلى توسيع وتطوير هذه النواة، بما يتلاءَم مع التقاليد القديمة في المنطقة من جهة، ومع مستجدات حياة الجماعة. ثم جاء تلامذته وخلفاؤه ممن شكلوا الآن كهنوتاً رسمياً، فتابعوا هذه المهمة، وأخذوا

= إبراهيم يهودياً، والتوراة التي ادعوا النسبة إليها، قد أُنزلت بعده بأزمان طويلة؟! إن مَنْ ينسب إبراهيم إلى اليهودية، يكون كمن ينسب الجدّ إلى حفيده، ويكون الابن قد ولد أباه وجدّه.

(1) قال السمؤال بن يحيى المغربي (ت 570هـ)، وهو يهوديّ أسلم، وكتب رسالة «إفحام اليهود»، قال: «علماء اليهود وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم، لا يعتقد أحد من علمائهم وأحبارهم أنها المنزلة على موسى البتة». وقال: «إن عزرا جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفق منه هذه التوراة التي بأيديهم الآن».

وقال: «فهذه التوراة التي بأيديهم - على الحقيقة - كتاب عزرا، وليس كتاب الله»..

قال: «وفيها ما يدل على أن الذي جمع هذه الفصول التي بأيديهم رجل فارغ جاهل بالصفات الإلهية، فلذلك نسب إلى الله صفات التجسيم، والندامة على ما مضى من أفعاله والإقلاع عن مثلها».

وعزرا: كان خادماً لملك الفرس، وكان حظياً عنده، فعينه الملك رئيساً على عدد من الكتبة، وكتب لليهود التوراة التي بأيديهم، وهو أول الكتبة، ومعه ابتدأت تلك الفئة من المؤلفين الذين وضعوا التوراة.. وكان للكتبة هؤلاء حزب منظم، وهو حزب الفريسيين، وهم الذين حملوا فيما بعد اسم «الحاخامين»؛ أي: معلمي الشريعة.

على عاتقهم فوق ذلك ابتكار أصول لهذه الشريعة تجعل منها تقليداً مترسخاً في المنطقة، لا أمراً عارضاً مفروضاً عليها من الخارج، وهكذا ابتدأ العمل في قصة إسرائيل التوراتية، ففي سياق عملية ابتكار تاريخ للشريعة بهدف تأصيلها وتثبيتها، كان لابُدّ من ابتكار أحداث وشخصيات تحمل هذا التاريخ وتطوره من مرحلة إلى أخرى، فابتدأت القصة بشكلها الجنيني، ثم أخذت بالتشعب والتوسع، ونشأت على جوانب الخط الرئيسي لها قصص متفرقة متنوعة، معظمها مستمد من التراث المحلي، تم اقتباسه وإدماجه في النسيج العام للرواية التوراتية.

• وتكبر الخرافة وتتسع، وتستكمل حلقاتها خلال قرنين أو ثلاثة من عودة عزرا بسفر الشريعة من البلاط الفارسي، ويتم ربط تاريخ «اليهوديّة» بتاريخ ما قبل اليهودية.. وتتابع قصة الأصول توغلها في الماضي المجهول مما سبقها، ثم كان لابُدَّ من إيقاف هذه العملية عند حدٍّ معين، فعمد كهنة أورشليم إلى جمع هذه الأدبيات وإعادة صياغتها بشكل أخير يضم التقاليد المتفرقة في كلٍّ موحد.

• إن الرواية التوراتية قصة أُصول مبتكرة لدين جديد ومجتمع جديد يحاول أن يثبت أقدميته وتجذره في المنطقة[1]. وإن المحررين أو الكتاب الذين صاغوا هذه القصة كانوا مدفوعين بهاجس تراثي، لا بهاجس تاريخي. لقد جمعوا ما وصل إليهم من شذرات الأخبار القديمة والأدب الشعبي الفلسطيني، ونتف الأخبار عن السامرة ويهوذا.. فصاغوا منها مادة قصصهم التي ضُمت إلى بعضها البعض من خلال منظور ديني فضفاض وتسلسل زمني مليء بالفجوات والانقطاعات.

---

(1) وأعاد التاريخُ نفسه في العصر الحديث، بعد سنة 1948م؛ حيث احتل اليهود 80٪ من فلسطين وحولوها إلى كيان يهودي، وهم قادمون من أوروبة وأمريكا وروسية.. فأرادوا أن يثبتوا أنهم «عائدون»، وأن فلسطين كانت وطناً لآبائهم، فغيروا أسماء القرى والمدن الفلسطينية، ولاكوها بلهجة قالوا: إنها عبريّة.. ولكن التاريخ فضحهم وفنّد ادعاءاتهم، فأثبت أن هذه الأسماء التي قالوا: إنها عبرية، هي في الحقيقة أسماء عربية كنعانية، كانت موجودة، منذ أزمان بعيدة، وأثبت التاريخ أن ما يقال: إنه «لغة عبرية» هو تجميع للهجات عربية عتيقة مثل الكنعانية، والآراميّة. ومما سرقوه وادعوه لأنفسهم الملابس الفلسطينية الشعبية، والأغاني الشعبية.. كما خلقوا كثيراً من الخرافات المتصلة ببعض الأماكن، وجعلوها محجاً، مثل قلعة «مسعدة» وقبر راحيل، . . .

. . والنتاج الأخير لهذه العملية هو رواية خيالية لا تتقاطع مع التاريخ الفلسطيني، ولا مع تاريخ الشرق القديم في كل تفاصيلها هبوطاً إلى موت الملك سليمان.

• إنَّ الأفكار الرئيسة الموجهة للتقاليد الرئيسة يمكن تلخيصها في خمس هي: العهد والوعد، والغربة، والعصر الذهبي، والسقوط، والتجديد.

وقد كان العهد الذي قطعه أهل أورشليم أمام عزرا الكاهن بقبول شريعة الملك وشريعة الربّ، بداية للتاريخ اليهودي، كما كان في الوقت ذاته النقطة المثالية التي ابتدأ منها المحرر التوراتي بابتكار قصة الأصول.

فهذا العهد بين الشعب وإلهه ليس جديداً، كما يزعمون، بل هو تجديد لعهد عتيق كان الأسلاف الأولون لهذه الجماعة الأورشليمية قد أبرموه مع إله عتيق أيضاً، في زعمهم. وكما ارتبط إبرام العهد مع ممثلي السلطة الفارسية ـ عزرا ونحميا ـ مع تثبيت العائدين في أرض عودتهم؛ (لأن كلَّ مَنْ لا يعمل بشريعة الملك وشريعة الرب يُقتل أو يُنفى وفق أوامر الملك الفارسي)، كذلك ارتبط العهد العتيق مع إبراهيم وخلفائه بالوعد بالأرض، فالربُّ ـ كما يزعمون ـ أعطى أرض كنعان لإبراهيم وذريته، وتعهد بحمايتهم مقابل عبادتهم له وحده، ثم جدد عهده مع إسحاق ويعقوب، وهذه الوعود القديمة كلها، ليست إلا نموذجاً بدئياً للوعد الجديد، الذي يقطعه إله السماء الفارسي، مع بقية يهوذا، فيقودهم إلى الأرض الموعودة ذاتها.

ولقد قاد إحساس القلة الباقية من يهوذا «بالغُربة في أرض العودة» التي جاؤوا إليها مع مَنْ رافقهم من مسبيي المناطق الأخرى، إلى إدخال عنصر الغربة الدائمة في قصصهم الطويلة عن الأصول.

فالآباء المؤسسون ـ كما يزعمون ـ كان غرباء عن أرض كنعان، وفدوا إليها من بلاد الرافدين، كما وفد إليها من بلاد الرافدين أيضاً بقية سبي يهوذا والغرباء الآخرون المشتتون في الأرض، وجماعة موسى كانت غريبة في مصر، وغريبة مرة أخرى في كنعان التي دخلتها مع يوشع كما زعموا، وقصة استعبادهم في مصر هي

نموذج بدئي لقصة سبيهم في بابل، وفرعون القديم هو نبوخذ نصر الجديد، وبذلك ترتبط الأفكار الثلاث عن العهد، والوعد، والغربة، ارتباطاً عضوياً، على مستوى الرواية، وعلى مستوى الواقع. كما تؤسس هذه الأفكار لفكرة التجديد وإعادة البناء. فالمسبيون قد عادوا من بابل لتجديد وإعادة بناء أورشليم، مثلما عاد المستعبدون في مصر وبنوا المملكة الموحدة في كنعان، وعملية التجديد وإعادة البناء لا تأخذ معناها إلا بارتباطها بفكرة العصر الذهبي والسقوط، ذلك أن العائدين - كما زعموا - قد جاؤوا لتجديد مُلك زال، ودولة آلت إلى الانحدار والسقوط.

• **خلاصة ما نريد قوله تحت عنوان: «ليس لليهود وجود أو جذور في بلاد الشام».**

1 - هناك ثلاثة مسميات، جمع اليهود بينها، وليس بينها جامع: العبريون، والإسرائيليون، واليهود.

أما العبريون: فزعموا أنهم منسوبون إلى «إبراهيم العبري»، ووصف إبراهيم بالعبري من اختراع اليهود، وليس له مصدر آخر خارج كتبهم. وثبت أن اليهود ليس لهم صلة نسب، أو دين بإبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾، ووصل اليهود أنفسهم بإبراهيم من باب الادّعاء الكاذب، هدفه إثبات صلتهم القديمة بفلسطين؛ لأن إبراهيم هاجر إليها.

وأما الإسرائيليون: فهم قوم موسى الذين كانوا في مصر، وقد ادعى اليهود نسبتهم إلى موسى، وتوراة موسى، وإلى قومه بني إسرائيل، وهو نسب كاذب؛ لأن بني إسرائيل قوم موسى لم يدخلوا فلسطين في حياته، ولم يدخلوها بعد مماته، فقصة يوشع بن نون الذي خلف موسى، قصة خرافية، لم يذكرها التاريخ خارج كتاب يهود، ولم يثبت علم الآثار شيئاً منها.

وأما اليهود: فهو آخر الأسماء، وهو اسم وضعه الفرس لهذه الفئة التي أرسلوها إلى فلسطين ليكونوا أعواناً لهم على كبت الحريات والثورات التي تخرج على الحكم الفارسي، ولم يكن الاسم معروفاً قبل زمن الملك الفارسي قورش ومَنْ جاءَه بعده من ملوك الفرس.

2 ـ وقد اختار اليهود لكيانهم اسم: «إسرائيل»، واسم «الدولة العبرية»، ولم يقولوا: «الدولة اليهودية»؛ فراراً من إظهار العنصر الديني في الدولة، في زمن «العلمانية»، وفراراً من التذكير بالنشوء المتأخر لهذا المصطلح.

• اليهود، واليهوديّة من صناعة الدولة الفارسية، وفي المصطلح الحديث «عملاء الفرس»، وهم مدينون للفرس بأصل النشأة والتكوين.. أرسلهم الفرس إلى بلاد الشام أو إلى فلسطين، ولم يكن لهم جذر فيها..

• اليهود القدماء الذين صنعهم ملوك الفرس ليسوا من الشام، وليسوا من فلسطين، وليسوا من جزيرة العرب، ولا يربطهم بإبراهيم ويعقوب نسب قريب أو بعيد، وتوراتهم ليس لها علاقة بتوراة موسى.. وهم في الأصل أشتات مجتمعات لغرض في نفس ملوك الفرس، وبعد تطاول الزمن على هذه الأشتات، صدّق أبناؤهم وأحفادهم ما رُسِم لآبائهم، فكان من ذلك المجتمع اليهودي..

• وتتكرر الحال نفسها في العصر الحديث: فاليهود الذين جاء بهم الإنجليز والأمريكان إلى فلسطين أشتات مجتمعات، جُلبوا من أكثر من مئة بلد، وأكثر من مئة عرق، وكان الهدف من تجميعهم وتهجيرهم إلى فلسطين، هو الهدف الفارسي القديم نفسه، وهو أن يكونوا خنجراً في قلب بلاد العرب، يحققون للإنجليز والأمريكان ما يريدونه من منافع ماديّة، مع وجود دافع دفين، لاتخاذ اليهود وسيلة للنكاية في العرب، وهو الدافع الصليبي المستكنّ في نفوس الأوربيين، ومَنْ تفرع عنهم مثل الأمريكان، والكنديين والأستراليين، وهؤلاء اليهود في العصر الحديث لا يتصلون باليهود القدماء.

6 ـ إن العلاقة بين اليهود والفرس ـ وبخاصة الملك قورش ـ علاقة مقدّسة؛ فقورش عند اليهود في منزلة نبيّ من أنبيائهم، فهو الذي جاء بهم من الشرق إلى غرب النهر، كما أنَّ (ملوك) أمريكا، جاؤوا بهم من الغرب إلى الشرق، اقتداءً بالملك قورش الفارسي.. ففي إحدى المناسبات قُدّم ترومان (رئيس أمريكا من 1945 ـ 1953م) في معهد يهودي لاهوتي، ووصف بأنه (الرجل الذي ساعد على خلق

إسرائيل) فرّد ترومان قائلاً: «ماذا تعني بقولك: ساعد على خلْق؟ إنني قورش، إنني قورش».

• اليهود الذين جلبهم الفرس إلى فلسطين لم يبق منهم أحد بعد زوال الحكم الفارسي: قال السمؤال بن يحيى المغربي (يهودي أسلم وكان حَبْراً) في كتاب «إفحام اليهود»: فإن الإسلام صادف اليهود تحت ذمة الفرس، ولم يبق لهم مدينة ولا جيش، إلا العرب المتهودة في خيبر. وقوله «تحت ذمة الفرس» يعني أنهم كانوا في بلاد فارس؛ لأن بلاد الشام كانت بيد الروم عندما جاء الإسلام.

وبقي اليهود أعواناً للفرس، وجنوداً لهم، في عصر احتلال الروم لبلاد الشام؛ ففي سنة 611 م أغار خسرو الثاني ملك الفرس على الشام وفلسطين، وكان اليهود في جيشه الغازي، واشترك اليهود مع الفرس في قتل جميع مسيحيي القدس، وتدمير أماكنهم الدينيّة.

وهذا من عجائب الأمور، وفيه دلالات:

أما العجيب: فهو أن ينضم اليهود الذين يزعمون أنهم من أتباع موسى وتوراته، إلى الفرس الوثنيين عبدة النار، لمحاربة الروم الذين كانوا على دين عيسى، مع أن المسيحيين يعترفون ويؤمنون بموسى، وتوراته.

وأما الدلالة: فهي أن الجماعة التي أطلقت على نفسها اسم «اليهود» في العصر الفارسي كانت جماعة وثنيّة، وكان الانتماء إلى موسى وتوراته قشرة خارجية لم تتغلغل إلى قلوبهم. وقد ذكر السمؤال في كتابه «إفحام اليهود» نماذج من كفرهم وتجسيمهم الذات العلية.. من ذلك أن في توراتهم: أن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمته، فأبصروا الله جهرة، وتحت رجليه كرسي منظره كمنظر البلور. وهذه صفة صنم. وذكر أن عدداً من رؤسائهم عبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنة للأصنام لتعظيمها وتعليم رسوم عبادتها، وابتنوا لها البيع العظيمة والهياكل، وعكف على عبادتها الزعماء، ومعظم اليهود، وتركوا أحكام التوراة والشرع.

• هناك صفة تجمع ما بين اليهود والفرس ظهرت واشتدت في العصر الإسلامي بخاصة، وهي أن الفرس واليهود يكرهون العرب. فمن المعروف أن الشعوبيين

أكثرهم من الفرس، وكان مذهب هؤلاء التقليل من شأن العرب، والقول بأنهم ليسوا أهلاً للرياسة والحكم. واليهود يكرهون العرب؛ لأنهم من نسل إسماعيل، واشتدت عداوتهم للعرب؛ لأن النبيّ الخاتم محمداً جاء من العرب، وكأنهم يقولون: إن العرب ليسوا أهلاً للنبوّة والإمامة.. وهناك خرافة فارسية تقول: إن ملوك الفرس القدماء كانوا من نسل إسحاق. فهل تأثر الفرس باليهود، أم تأثر اليهود بالفرس؟ مسألة تحتاج إلى دراسة، وجواب.